القلب المسكين

- ٣ -

أمَّا صاحب القلب المسكين ؛ فرمقها وهي تلتفت إليه التفات الظَّبية بسواد عينيها ، يجعل سوادهما الجميل في النَّظرة الواحدة نظرتين لعاشق الجمال ، تقول إحداهما : أنت ، وتقول الأخرى : أنا ، ثمَّ رآها وقد كسرت أجفانها ، وتفترت في يدي الممثّل العشيق ، وأفصح منظرُها ببلاغة . . . ببلاغة جسم المرأة بين المحبوبة بين ذراعي مَنْ تحبُّه ، ثمَّ اختلجت ، وصوَّبت وجهها ، وأهدفت شفتيها ، وتلقَّت القبلة .

وكان به منها ما الله عليم به ، فانبعثت من صدره آهةٌ مُغْوِلةٌ[1] ، تئنُّ أنيناً ، غير أنَّها كلَّمته بعينيها : أنَّها تقبّله هو ؛ فلا ريب قد حملت إليه إحدى النَّسمات شيئاً جميلاً عن ذلك الفم ، لمست به النَّفس النَّفس ، والقبلة هي هي ، ولكن وقع خطأٌ في طريقة إرسالها .

وليس تحت الخيال شيءٌ موجودٌ ، ولكنَّ الخيال المتسرح بين الحبيبين تكون فيه أشياء كثيرةٌ واجبة الوجود ؛ إذ هو بطبيعته مجرى أحلام من فكرٍ إلى فكرٍ ، ومسرح شعورٍ يصدر ، ويردُ بين القلبين في حياةٍ كاملة الإحساس متجاوبة المعاني ، وبهذا الخيال يكون مع القلبين المتحابَّين روحٌ طبيعيٌّ كأنَّه قلبٌ ثالثٌ ينقل للواحد عن الآخر ، ويصل السِّرَّ بالسِّرِّ ، ويزيد في الأشياء ، وينقص منها ، ويَدخل في غير الحقيقي ، فيجعله أكثر من الحقيقي ؛ ومن هنا لم يكن فرحٌ ، ولا حزنٌ ، ولا أملٌ ، ولا يأسٌ ، ولا سعادةٌ ، ولا شقاءٌ ، إلا وكلُّ ذلك مضاعف للمحبِّ الصَّادق الحبِّ بقدر قلبين ، والَّذين يعرفون قبلة الشَّغف والهوى ، يعرفون : أنَّ العاشق يقبّل بلذَّة أربع شفاهٍ .

* * *

---

(١) « مغولة » : غاله : قتَله على غفلةٍ منه . أو خدعه .

وانسدلت بعد هذه القُبلة ستارة المسرح ، وغابت الجميلة المعشوقة غيبة التمثيل ، فقلت لصاحب القلب المسكين : إنَّ روحيكما متزوجتان . . قال : آه ! ومدَّها من قلبه ، كأنَّه دَنِفٌ[١] سقيمٌ .

قلت : وماذا بعد آه ؟ .

قال : وماذا كان قبلها ؟ إنَّه الحبُّ : فيه مثل ما في (عمليةٍ جراحيَّةٍ) من تنهُّدات الألم ، ولذعاته ، غير أنَّها مفرقةٌ على الأوقات ، والأسباب ، مبعثرةٌ غير مجموعةٍ ! « آه » : هذه هي الكلمة التي لا تفرغ منها القلوب الإنسانيَّة ، وهي تقال بلهفةٍ واحدةٍ في المصيبة الدَّاهمة ، والألم البالغ ، والمرض المدنف ، والحبِّ الشَّديد ، فحينما توشك النَّفس أن تختنق ؛ تتنفَّس بـ« آه » !

قلت : أما رأيتها مرَّةً وقد أوشكت نفسُها أن تختنق ؟

قال : لقد هجتَ لي داءً قديماً ؛ إنَّ بهذه الحبيبة ساعاتٍ مغروسةً في زمني غرس الشَّجر ، فبين الحين والحين تثمر هذه السَّاعات مُرَّها وحلوها في نفسي ، كما يُثمر الشَّجر المختلف . ولقد رأيتها ذات مرَّةٍ في ساعة همِّها ! ثمَّ ضحك ، وسكت .

قلت : يا عدوَّ نفسه ! ماذا رأيت منها ؟ وكيف أراك الوَجْدُ ما رأيتَ منها ؟

قال : أتصدقني ؟

قلت : نعم .

قال : رأيتُ الهمَّ على وجه هذه الجميلة كأنَّه همٌّ مؤنَّثٌ يعشقه همٌّ مذكَّرٌ ، فله جمالٌ ، ودلالٌ ، وفتنةٌ ، وجاذبيَّةٌ ، وكأنَّ وجهها يصنع من حزنها حزنين : أحدهما بمعنى الهمِّ لقلبها ! والآخر بمعنى الثَّورة لقلبي !

قلت : يا عدوَّ نفسه ! هذا كلامٌ آخر ، فهذا امرأةٌ ناعمةٌ بضَّةٌ مطويٌّ بعضها على بعضها ، لفَّاء[٢] من جهةٍ ، هيفاء[٣] من جهةٍ ، ثقيلة شيءٍ وخفيفة شيءٍ ، جمعت

---

(١) « دنف » : دَنِفَ المريض : ثَقُل عليه المرض ، وأشفى على الموت ، فهو دَنِفٌ .

(٢) « لفَّاء » : لفَّ : تدانى فخذاه سِمَناً ، فهو ألَفُّ ، وهي لفَّاء .

(٣) « هيفاء » : هَيَفَ الغُلامُ : دقَّ خَصْرُه وضَمُر بطنُه ، فهو أهيف ، وهي هيفاء .

الحسن ، والجسم ، وفنّاً بارعاً في هذا ، وفَنّاً مفرداً في ذاك ، وهي جميلةُ كلٍّ ما تتأمَّل منها ، ساحرةُ كلٍّ ما تتخيَّل فيها ، وهي مزَّاحة ، دحداحةٌ[1] ، وهي تطالعك ، وتطمعك ، وأنت امرؤٌ عاشقٌ ، ورجلٌ قويُّ الرُّجولة ، فالجميلة والمرأة هما لك في هذا الجسم الواحد ، إن ذهبت تفصلهما في خيالك ؛ امتزجتا في دمك ، ولو أمسكتْ آلةُ التَّصوير نظراتِك إليها ؛ لبانت فيها أطرافُ اللَّهب الأحمر ممَّا في نفسك منها ، ولعمري ! لو مرَّت عربةٌ تدرج في الطريق ، ونظرت إليها نظرتك لهذه المرأة بهذه الغريزة المحتبسة المكفوفة[2] لظننتك سترى العجلة الخلفيَّة عاشقاً مهتاجاً يطارد العجلة الأماميَّة ؛ وهي تفرُّ منه فرارَ العذراء ! .

* * *

فضحك وقال : لا ! لا ! إنَّ نوع التَّصوير لإنسانٍ هو نوع المعرفة لهذا الإنسان ، ومن كلِّ حبيبٍ وحبيبِه تجتمع مقدِّمةٌ ، ونتيجةٌ بينهما تلازمٌ في المعنى ، والمقدِّمة عندي : أنَّ إبليس هنا في غير إبليسيَّته ، فلا يمكن أن تكون النتيجة وضْعَه في إبليسيَّته ؛ وما أتصوَّر في هذه الجميلة إلا الفنَّ ؛ الَّذي أسبغه الجمال عليها ، فهي في معرفتي ، وخيالي كالتِّمثال المبدَع إبداعُه : لا يستطيع أن يعمل عملاً إلا إظهارَ شكله الجميل التَّام حافلاً بمعانيه .

وليست هذه المرأة هي الأولى ، ولا الثانية ، ولا الثالثة فيمن أحببت[3] ؛ إنَّها تكرارٌ ، وإيضاحٌ ، وتكملةٌ لشيءٍ لا يكمل أبداً ، وهو هذه المعاني النِّسويَّة الجميلة التي يزيد الشَّيطان فيها من عشق كلِّ عاشقٍ ؛ إنَّ بطن المرأة يلد ، ووجه المرأة يلد ! .

قلت : هذا إن كان وجهها كوجه صاحبتك ، ولكن ما بال الدَّميمة ؟ .

قال : لا ! هذا وجهٌ عاقرٌ .

* * *

---

(١) هذه كلمة استعملها بعض المولدين في معنى الظريفة (المدردحة) وليس كذلك معناها في اللغة ، ولكن الاستعمال صحيح عندنا ، واللغة لا تأباه . (ع) .

(٢) يستعمل الكتاب في هذا المعنى لفظ (المكبوتة) ؛ وهو تعبير ضعيف ، والأفصح ما ذكرنا هنا . (ع) .

(٣) انظر : فصل « الرافعي العاشق » من كتابنا : « حياة الرافعي » . (س) .

قلت : ولكنَّ الخطأ في فلسفتك هذه أنَّك تنظر إلى المرأة نظرةً عمليَّةً تريد أن تعمل ، ثم تمنعها أن تعمل ؛ فتأتي فلسفتك بعيدةً من الفلسفة ، وكأنَّك تغذو المعدةَ الجائعة برائحة الخبز فقط .

قال : نعم هذا خطأ ، ولكنَّه الخطأ الَّذي يُخرج الحقائق الخالية من هذا الجمال ؛ فإذا سخرتَ من الحقيقة المادِّيَّة بأسلوبٍ ، فبهذا الأسلوب عينه تُثبت الحقيقة نفسها في شكلٍ آخر قد يكون أجمل من شكلها الأوَّل .

أتعلم كيف كانت نظرتي إلى نور القمر على هذه ، وإلى حسن هذه على القمر ؟ إنَّ القمر كان يُنسيني بشريَّتَها ، فأراها متمِّمةً له ، كأنَّه ينظر وجهه في مرآةٍ ، فهي خيالُ وجهه ؛ وكانت هي تُنسيني مادِّيَّة القمر ، فأراه متمِّماً لها كأنَّه خيال وجهها .

أتدري ما نظرةُ الحبِّ ؟ إنَّ في هذا القلب الإنسانيِّ شرارةً كهربائيَّةً متى انقدحت ؛ زادت في العين ألحاظاً كشَّافةً ، وزادت في الحواسِّ أضواءً مُدركةً ؛ فينفذ العاشق بنظره ، وحواسِّه جميعاً في حقائق الأشياء ، فتكون له على النَّاس زيادةٌ في الرُّؤية ، وزيادةٌ في الإدراك يعمل بها عملاً فيما يراه ، وما يدركه ؛ وبهذه الزِّيادة الجديدة على النَّفس تكون للدُّنيا حالةٌ جديدةٌ في هذه النَّفس ، ويأتي السُّرور جديداً ، ويأتي الحزن جديداً أيضاً ؛ فألف قبلةٍ يتناولها ألف عاشقٍ من ألف حبيبٍ هي ألف نوعٍ من اللَّذَّة ، ولو كانت كلُّها في صورةٍ واحدةٍ ؛ ولو بكى ألف عاشقٍ من هجر ألف معشوقٍ ؛ لكان في كلِّ دمعٍ نوعٌ من الحزن ليس في الآخر !

* * *

قلت : فنوع تصوُّرك لهذه الرَّاقصة الَّتي تحبُّها : أنَّ إبليس هنا في غير إبليسيَّته !

قال : هكذا هي عندي ، وبها أسخر من الحقيقة الإبليسيَّة .

قال : أو تسخر الحقيقةُ الإبليسيَّة منك ، وهو الأصحُّ ، وعليه الفتوى .

فضحك طويلاً ، وقال : سأحدِّثك بغريبة : أنت تعرف أنَّ هذه الغادة لا تظهر أبداً إلا في الحرير الأسود ؛ وهي رقيقة البشرة ، ناصعة اللَّون ، فيكون لها من سواد الحرير بياضُ البياض ، وجمال الجمال ، فلقد كنت أمس بعد العشاء في طريقي إلى هذا المكان ؛ لأراها ، وكان اللَّيل مظلماً يتدجَّى[1] ، وقد لبس ، وتلبَّس ، وغلب

(١) « يتدجَّى » : دَجَا الليل : أَظْلَمَ .

على مصابيح الطَّريق فحصر أنوارها حتَّى جعل بين كلِّ مصباحين ظلمةٌ قائمةٌ كالرَّقيب بين الحبيبين يمنعهما أن يلتقيا ، فبينا أقلِّب عيني في النُّور والغسق وأنا في مثل الحالة التي تكون فيها الأفكار المحزنة أشدَّ حزناً ؛ إذ رُفع لي من بعيدٍ شبحٌ أسود يمشي مِشيته متفتِّراً ، قصير الخطو ، يهتزُّ ، ويتبختر ؛ فتبصَّرته في هيئته ، فما شككت أنَّها هي . وفُتحت الجنَّة التي في خيالي ، وبرزت الحقائق الكثيرة تلتمس معانيها في لذَّة الحبِّ ، وكان الطريق خالياً ، فأحسست به لنا وحدنا كالمسافة المحصورة بين ثغرين متعاشقين ، يدنو أحدهما من الآخر ، وأسرعت إسراع القلب إلى الفرصة حين تمكن ؛ فلمَّا صرت بحيث أتبيَّن ذلك الشَّبح ؛ إذا هو . . . إذا هو قسِّيسٌ . . . .

* * *

فقلت : يا عجباً ! ما أظرفَ ما داعبك إبليسُ هذه المرَّة ! وكأنَّه يقول لك : إيه يا صاحبَ الفضيلة . . . !

وكان الممثِّلون يتناوبون المسرحَ ونحن عنهم في شغل ؛ إذ لم تكنْ نوبتُها قد جاءت بعد ، وألقى الشَّيطانُ على لساني ، فقلت لصاحبنا : ما يمنعك أن تبعث إليها فلاناً يستفتح كلامها ، ثم يدعوها ، فليس بينك وبينها إلا كلمة « تعاليْ » أو « تفضَّلي » ؟

قال : كلا ، يجبُ أن تنفصلَ عنِّي ؛ لأراها في نفسي أشكالاً ، وأشكالاً ؛ ويجب أن تبتعد ؛ لألمسها لمساتٍ روحيَّة ؛ ويجب أن أجهلَ منها أشياء ؛ لأحقِّق فيها عِلم قلبي ؛ ويجب أن تدعَ جسمها ، وأدعَ جسمي ، وهنا نلتقي رجلاً وامرأةً ، ولكن على فهمٍ جديدٍ ، وطبيعةٍ جديدةٍ . بهذا الفهم أنا أكتب ، وبهذه الطَّبيعة أنا أحبُّ .

ما هو الجزءُ الذي يفتنني منها ؟ هو هذا الكلُّ بجميع أجزائه .

وما هو هذا الكلُّ ؟ هو الذي يفسِّر نفسه في قلبي بهذا الحبِّ .

وما هو هذا الحبُّ ؟ هو أنا وهي على هذه الحالة من اليأس .

نعم أنا بائسٌ ، ولكنَّ شعورَ البؤس هو نوعٌ من الغنى في الفنِّ : لا يكون هذا الغِنى إلا من هذا الشُّعور المؤلم ، والحبيب الذي لا تناله هو وحده القادر قدرة

الجمال والسِّحر ، يجعلك لا تدري أين يختبئ منه جماله ، فيدعك تبحث عنه بلذَّةٍ ، ولا تدري أين يُسفِر جماله منه ، فيدعك تراه بلذَّةٍ أخرى ، أنا أنضج هذه الحلوى على نار مشبوبةٍ في قلبي !

قلت : يا صديقي المسكين ! هذه مشكلةٌ عرضت بها المصادفة ، وستحلُّها المصادفة أيضاً . وما كان أشد عجبي ؛ إذ لم أفرَغ من الكلمة حتَّى رأينا (المشكلة) مقبلةٌ علينا .

أمَّا هو : أمَّا صاحب القلب المسكين !!

* * *